مجموعة الروائع الانسانية

الغزالي

المنقذ من الضلال

والموصل الى ذي العزة والجلال

ترجمه الى الفرنسية وقدم له وعلق عليه

فريد جبر

الطبعة الثانية

اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع
بيروت
١٩٦٩

جميع الحقوق محفوظة
للجنة اللبنانية لترجمة الروائع

ص . ب . ١١٤٥ ، بيروت (لبنان)
١٩٦٩

اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع

الدكتور ادمون رباط	رئيس
الاستاذ عبدالله المشنوق	نائب رئيس
الدكتور فؤاد افرام البستاني	امين صندوق
الدكتور جميل صليبا	

قرأ هذه الترجمة وفقًا لنظام اللجنة
ڤنسان مونتاي

فهرس

توطئة ٩
مداخل السفسطة وجحد العلوم ١٢
اصناف الطالبين ١٥
١ ــ علم الكلام: مقصوده وحاصله ١٦
٢ ــ الفلسفة ١٨
اصناف الفلاسفة ١٩
اقسام علومهم ٢٠
٣ ــ مذهب التعليم وغائلته ٢٨
٤ ــ طرق الصوفية ٣٥
حقيقة النبوّة واضطرار كافة الخلق اليها ٤١
سبب نشر العلم بعد الاعراض عنه ٤٥

توطئة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يفتتح بحمده كل رسالة ومقالة، والصلاة على محمد (المصطفى) صاحب النبوة والرسالة ، وعلى آله واصحابه الهادين من الضلالة .

اما بعد : فقد سألتني أيها الأخ في الدين ، أن أبث إليك غاية العلوم وأسرارها ، وغائلة المذاهب وأغوارها ، وأحكي لك ما قاسيته في استخلاص الحق من بين اضطراب الفرق ، مع تباين المسالك والطرق ، وما استجرأت عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد ، إلى يفاع الاستبصار ، وما استفدته أولاً من علم الكلام ، وما اجتَوَيْتُه ثانياً من طرق اهل التعليم القاصرين لدَرك الحق على تقليد الإمام ، وما ازدريته ثالثاً من طرق التفلسف ، وما ارتضيته آخراً من طريقة التصوف وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق ، من لباب الحق ، وما صرفني عن نشر العلم ببغداد ، مع كثرة الطلبة ، وما دعاني الى معاودته بنيسابورَ بعد طول المدة ، فابتدرت لإجابتك إلى

---

* ملاحظة : اعتمدنا هنا الطبعة الخامسة لكتاب « المنقذ من الضلال » المنشورة في دمشق عام ١٩٥٦ والتي حقق في نصها وقدَّم له الدكتور جميل صليبا والدكتور كامل عيّاد .

اللجنة

مطلبك ، بعد الوقوف على صدق رغبتك ، وقلت مستعيناً بالله ومتوكلاً عليه ، ومستوفقاً منه ، وملتجئاً إليه :

اعلموا — أحسن الله (تعالى) إرشادكم ، وألاَنَ للحق قيادكم — ان اختلاف الخلق في الاديان والملل ، ثم اختلاف الأئمة في المذاهب ، على كثرة الفِرَق وتباين الطرق ، بحر عميق غرق فيه الأكثرون وما نجا منه إلا الأقلون . وكل فريق يزعم أنه الناجي ، و « كلُ حزبٍ بِما لَدَيْهِمْ فرحون » وهو الذي وعدنا به سيد المرسلين ، صلوات الله عليه ، وهو الصادق الصدوق حيث قال : « سَتَفْتَرِقُ أمتي ثلاثاً وسبعين فِرْقةً ، الناجية منها واحدة » فقد كاد ما وعد ان يكون .

ولم أزل في عنفوان شبابي (وريعان عمري) ، منذ راهقت البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى الآن ، وقد اناف السن على الخمسين ، أقتحم لجّة هذا البحر العميق ، وأخوض غَمرَتهُ خوض الجسور ، لا خَوْضَ الجبان الحذور ، واتوغل في كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، واتقحم كل ورطة ، واتفحص عن عقيدة كل فرقة ، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين مُحق ومبطل ، ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنياً إلا وأحب ان أطلع على باطنيته ، ولا ظاهرياً إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته ، ولا فلسفياً إلا واقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلماً إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته ، ولا صوفياً إلا واحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبداً إلا واترصـد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقاً معطلاً إلا واتجسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته .

وقد كان التعطش إلى دَرْك حقائق الامور دأبي وديدني من أول امري وريعان عمري ، غريزةً وفطرةً من الله وُضعتا في جبلتي ، لا باختياري وحيلتي ، حتى انحلت عني رابطة التقليد ، وانكسرت علي العقائد الموروثة ،

على قرب عهدِ سنِ الصبا ، اذ رأيت صبيان النصارى لا يكون لهم نشوءٌ إلا على التنصر ، وصبيان اليهود لا نشوءَ لهم إلا على التهود ، وصبيان المسلمين لا نشوءَ لهم إلا على الاسلام . وسمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ حيث قـال : « كل مولودٍ يولد على الفطرة فأبواه يهودانه وينصرانهِ ويمجسانه » ، فتحرك باطني الى (طلب) حقيقة الفطرة الأصلية ، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين ، والتمييز بين هذه التقليدات ، وأوائلها تلقينات وفي تمييز الحق منها عن الباطل اختلافات . فقلت في نفسي : اولاً ، إنما مطلوبي العلم بحقائق الامور ، فلا بُد من طلب حقيقة العلم ما هي ؟ فظهر لي ان العلم اليقيني هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافاً لا يبقى معه ريب ، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم ، ولا يتسع القلب لتقدير ذلك ، بل الامان من الخطإ ينبغي ان يكون مقارناً لليقين مقارنة لو تحدى باظهار بطلانه مثلاً من يقلب الحجر ذهباً والعصا ثعباناً ، لم يورث ذلك شكاً وإنكاراً ؛ فإني اذا علمت أن العشرة أكثر من الثلاثة ، فلو قال لي قائل : لا ، بل الثلاثة أكثر < من العشرة > بدليل أني أقلب هذه العصا ثعباناً ، وقلبها ، وشاهدت ذلك منه ، لم أشك بسببه في معرفتي ، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه ! فأما الشك فيما علمته ، فلا .

ثم علمت ان كل ما لا أعلمه على هذا الوجه ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين ، فهو علم لا ثقة به ولا أمان معه ، وكل علم لا أمان معه فليس بعلم يقيني .

مَدَاخِلُ السَفسَطة وجحد العُلوم

ثم فتشت عن علومي فوجدت نفسي عاطلاً من علم موصوف بهذه الصفة إلا في الحسيات والضروريات . فقلت : الآن بعد حصول اليأس ، لا مطمع في اقتباس المشكلات إلا من الجليات ، وهي الحسيات والضروريات . فلا بد من إحكامها أولاً لأتيقن أن ثقتي بالمحسوسات ، وأماني من الغلط في الضروريات ، من جنس أماني الذي كان من قبلُ في التقليديات ، ومن جنس أمان أكثر الخلق في النظريات ، أم هو أمان محققٌ لا غدر فيه ولا غائلة له ؟ فأقبلت بجد بليغ أتأمل في المحسوسات والضروريات ، وانظر هل يمكنني أن أشكك نفسي فيها ؛ فانتهى بي طول التشكك إلى أن لم تسمح نفسي بتسليم الامـان في المحسوسات أيضاً ، وأخذت تتسع للشك فيها وتقول : من اين الثقة بالمحسوسات وأقواها حاسة البصر ، وهي تنظر الى الظل فتراه واقفاً غير متحرك ، وتحكم بنفي الحركة ؟ ثم ، بالتجربة والمشاهدة ، بعد ساعة ، تعرف انه متحرك وأنه لم يتحرك دفعة < واحدة > بغتة ، بل على التدريج ذرة ذرة حتى لم يكن له حالة وقوف . وتنظر الى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار ، ثم الادلة الهندسية تدل على انه اكبر من الارض في المقدار . هذا وأمثاله من المحسوسات يحكم فيها حاكم الحس باحكامه ، ويكذبه حاكم العقل ويخونه تكذيباً لا سبيل الى مدافعته . فقلت : قد بطلت الثقة بالمحسوسات أيضاً فلعله لا ثقة الا بالعقليات التي هي من الاوليات ، كقولنا : العشرة اكثر من الثلاثة ، والنفي والاثبات لا يجتمعان في الشيء الواحد ، والشيء الواحد لا يكون حادثاً قديماً ، موجوداً معدوماً ، واجباً محالاً . فقالت المحسوسات : بم تأمن أن

تكون ثقتك بالعقليات كثقتك بالمحسوسات ، وقد كنت واثقاً بي ، فجاء حاكم العقل فكذبني ، ولولا حاكم العقل لكنت تستمر على تصديقي؟ فلعل وراء ادراك العقل حاكماً آخر ، اذا تجلى ، كذب العقل في حكمه ، كما تجلى حاكم العقل فكذب الحس في حكمه . وعدم تجلي ذلك الادراك ، لا يدل على استحالته . فتوقفت النفس في جواب ذلك قليلاً ، وايدت اشكالها بالمنام ، وقالت : اما تراك تعتقد في النوم أموراً ، وتتخيل أحوالاً ، وتعتقد لها ثباتاً واستقراراً ، ولا تشك في تلك الحالة فيها ، ثم تستيقظ فتعلم انه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل وطائل ؟ فبم تأمن ان يكون جميع ما تعتقده في يقظتك بحس او عقل هو حق بالاضافة الى حالتك [التي انت فيها] لكن يمكن ان تطرأ عليك حالة تكون نسبتها الى يقظتك ، كنسبة يقظتك الى منامك ، وتكون يقظتك نوماً بالاضافة اليها ! فاذا وردتَ تلك الحالة تيقنت ان جميع ما توهمت بعقلك خيالات لا حاصل لها ، ولعل تلك الحالة ما يدعيه **الصوفية** انها حالتهم : اذ يزعمون انهم يشاهدون في أحوالهم التي (لهم) اذا غاصوا في انفسهم ، وغابوا عن حواسهم ، احوالاً لا توافق هذه المعقولات . ولعل تلك الحالة هي الموت ، اذ قال رسول الله ﷺ : « الناس نيام فاذا ماتوا انتبهوا » فلعل الحياة الدنيا نوم بالاضافة الى الآخرة . فاذا مات ظهرت له الاشياء على خلاف ما يشاهده الآن ، ويقال له عند ذلك : « فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » . فلما خطرت لي هذه الخواطر ، (و)انقدحت في النفس ، حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر اذ لم يكن دفعه الا بالدليل ، ولم يمكن نصب دليل الا من تركيب العلوم الاولية . فاذا لم تكن مسلمة لم يمكن ترتيب الدليل . فأعضل هذا الداء ، ودام قريباً من شهرين انا فيهما على مذهب السَفْسَطة بحكم الحال ، لا بحكم النطق والمقال ، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض ، وعادت النفس الى الصحة والاعتدال ، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثوقاً بها على امن ويقين ، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام ، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر ، وذلك

النور هو مفتاح اكثر المعارف . فمن ظن ان الكشف موقوف على الادلة المحررة فقد ضيق رحمة الله [تعالى] الواسعة ؛ ولما سئل رسول الله ﷺ عن «الشرح» ومعناه في قوله تعالى: « فمن يرد الله ان يهديه يشرح صدره للاسلام . » قال : «هو نور يقذفه الله تعالى في القلب». فقيل : « وما علامته ؟ » فقال : « التجافي عن دار الغرور ، والانابة الى دار الخلود . » وهو الذي قال ﷺ فيه : « ان الله تعالى خلق الخلق في ظلمة ثم رش عليهم من نوره . » فمن ذلك النور ينبغي ان يطلب الكشف ، وذلك النور ينبجس من الجود الإلهي في بعض الاحايين ، ويجب الترصد له كما قال عليه السلام : « ان لربكم في ايام دهركم نفحات الا فتعرضوا لها » .

والمقصود من هذه الحكايات أن يعمل كمال الجد في الطلب ، حتى ينتهي الى طلب ما لا يطلب . فان الاوليات ليست مطلوبة ، فانها حاضرة . والحاضر اذا طلب فقد واختفى . ومن طلب ما لا يطلب ، فلا يتهم بالتقصير في طلب ما يطلب .

أصناف الطالبين

ولما شفاني الله تعالى من هذا المرض بفضله وسعة جوده ، انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق :

١ — **المتكلمون** : وهم يدعون أنهم أهل الرأي والنظر ؛

٢ — **الباطنية** : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم ؛

٣ — **الفلاسفة** : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان ؛

٤ — **الصوفية**: وهم يدعون أنهم خواص الحضرة وأهل المشاهدة والمكاشفة .

فقلت في نفسي : الحق لا يعدو هذه الأصناف الاربعة ، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق ، فإن شذ الحق عنهم ، فلا يبقى في درك الحق مطمع ، إذ لا مطمع في الرجوع إلى التقليد بعد مفارقته ؛ و (من) شرط المقلد أن لا يعلم أنه مقلد ، فإذا علم ذلك انكسرت زجاجة تقليده ؛ وهو شعب لا يرأب ، وشعث لا يلم بالتلفيق والتأليف ، إلا أن يذاب بالنار ، ويستأنف له صنعة أخرى مستجدة .

فابتدرت لسلوك هذه الطرق ، واستقصاء ما عند هذه الفرق ، مبتدئاً بعلم الكلام ، ومثنياً بطريق الفلسفة ، ومثلثاً بتعليم الباطنية ، ومربعاً بطريق الصوفية .

* * *

١ ــ علم الكلام : مقصوده وحاصله

ثم إني ابتدأت بعلم الكلام فحصلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علماً وافياً بمقصوده ، غير واف بمقصودي ؛ وإنما المقصود منه حفظ عقيدة أهل السنة [على أهل السنة] ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة . فقد القى الله (تعالى) الى عباده على لسان رسوله عقيدة هي الحق ، على ما فيه صلاح دينهم ودنياهم ، كما نطق بمعرفته القرآن والاخبار . ثم القى الشيطان في وساوس المبتدعة أموراً مخالفة للسنة ، فلهجوا بها ، وكادوا يشوشون عقيدة الحق على أهلها . فأنشأ الله تعالى طائفة المتكلمين ، وحرك دواعيهم لنصرة السنة بكلام مرتب ، يكشف عن تلبيسات أهل البدع المحدثة ، على خلاف السنة المأثورة ؛ فمنه نشأ علم الكلام وأهله . ولقد قام طائفة منهم بما ندبهم الله (تعالى) اليه فأحسنوا الذب عن السنة والنضال عن العقيدة المتلقاة بالقبول من النبوة ، والتغيير في وجه ما احدث من البدعة ، ولكنهم اعتمدوا في ذلك على مقدمات تسلموها من خصومهم ، واضطرهم الى تسليمها : إما التقليد ، أو اجماع الامة ، أو مجرد القبول من القرآن والاخبار . وكان اكثر خوضهم في استخراج مناقضات الخصوم ، ومؤاخذتهم بلوازم مسلماتهم. وهذا قليل النفع في حق من لا يسلم سوى الضروريات شيئاً (أصلاً) فلم يكن الكلام في حقي كافياً ، ولا لدائي الذي كنت أشكوه شافياً . نعم ، لما نشأت صنعة الكلام ، وكثر الخوض فيه وطالت المدة ، تشوق المتكلمون الى محاولة الذب (عن السنة) بالبحث عن حقائق الامور ، وخاضوا في البحث عن الجواهر والاعراض وأحكامها . ولكن لما لم يكن ذلك مقصود علمهم ، لم يبلغ كلامهم فيه الغاية القصوى ، فلم يحصل منه ما يمحق بالكلية ظلمات

الحيرة في اختلافات الخلق . ولا ابعد ان يكون قد حصل ذلك لغيري ! بل لست اشك في حصول ذلك لطائفة ، ولكن حصولاً مشوباً بالتقليد في بعض الامور التي ليست من الاوليات !

والغرض الآن حكاية حالي ، لا الإنكار على من استشفى به ، فان أدوية الشفاء تختلف باختلاف الداء . وكم من دواء ينتفع به مريض ويستضر به آخر !

* * *

٢ ـ الفلسفة

ثم اني ابتدأت ، بعد الفراغ من علم الكلام ، بعلم **الفلسفة** . وعلمت يقيناً انه لا يقف على فساد نوع من العلوم ، من لا يقف على منتهى ذلك العلم ، حتى يساوي أعلمهم في أصل [ذلك] العلم ، ثم يزيد عليه ويجاوز درجته ، فيطلع على ما لم يطلع عليه صاحب العلم من غور وغائلة . وإذ ذاك يمكن أن يكون ما يدعيه من فساد حقاً . ولم أر احداً من علماء الاسلام صرف عنايته وهمته الى ذلك.

ولم يكن في كتب « المتكلمين » من كلامهم ، حيث اشتغلوا بالرد عليهم ، إلا كلمات معقدة مبددة ، ظاهرة التناقض والفساد ، لا يظن الاغترار بها بعاقل عامي ، فضلاً عمن يدعي دقائق العلوم . فعلمت ان رد المذهب قبل فهمه والاطلاع على كنهه رمي في عماية . فشمرت عن ساق الجد، في تحصيل ذلك العلم من الكتب، بمجرد المطالعة من غير استعانة باستاذ، واقبلت على ذلك في اوقات فراغي من التصنيف والتدريس في العلوم الشرعية ، وأنا ممنو بالتدريس والافادة لثلاث مائة نفر من الطلبة ببغداد . فأطلعني الله سبحانه [وتعالى] ، بمجرد المطالعة في هذه الاوقات المختلسة ، على منتهى علومهم في أقل من سنتين. ثم لم ازل اواظب على التفكر فيه بعد فهمه قريباً من سنة ، أعاوده وأردده واتفقد غوائله وأغواره ، حتى اطلعت على ما فيه من خداع وتلبيس ، وتحقيق وتخييل ، اطلاعاً لم اشك فيه .

فاسمع الآن حكايتهم وحكاية حاصل علومهم ، فاني رأيتهم اصنافاً ، ورأيت علومهم اقساماً ؛ وهم على كثرة اصنافهم يلزمهم وصمة الكفر والالحاد ، وان كان بين القدماء منهم والاقدمين ، وبين الاواخر منهم والاوائل ، تفاوت عظيم في البعد عن الحق والقرب منه .

اصناف الفلاسفة وشمول وصمة الكفر كافتهم

اعلم : انهم ، على كثرة فرقهم واختلاف مذاهبهم ، ينقسمون الى ثلاثة اقسام : الدهريون ، والطبيعيون ، والالهيون .

الصنف الاول : **الدهريون** ، وهم طائفة من الاقدمين جحدوا الصانع المدبر ، العالم القادر ، وزعموا ان العالم لم يزل موجوداً كذلك بنفسه بلا صانع ، ولم يزل الحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ، كذلك كان وكذلك يكون ابداً . **وهؤلاء هم الزنادقة** .

والصنف الثاني : **الطبيعيون** ، وهم قوم اكثروا بحثهم عن عالم الطبيعة ، وعن عجائب الحيوان والنبات ، واكثروا الخوض في علم تشريح اعضاء الحيوانات فرأوا فيها من عجائب صنع الله تعالى وبدائع حكمته ، ما اضطروا معه الى الاعتراف بفاطر حكيم ، مطلع على غايات الامور ومقاصدها . ولا يطالع التشريح وعجائب منافع الأعضاء مطالع ، إلا ويحصل له هذا العلم الضروري بكمال تدبير الباني لبنية الحيوان، لا سيما بنية الإنسان . إلا أن هؤلاء، لكثرة بحثهم عن الطبيعة ، ظهر عندهم ، لاعتدال المزاج ، تأثير عظيم في قوام قوى الحيوان به . فظنوا أن القوة العاقلة من الإنسان تابعة لمزاجه ايضاً ، وانها تبطل ببطلان مزاجه فتنعدم . ثم إذا انعدمت ، فلا يعقل إعادة المعدوم كما زعموا . فذهبوا (الى) أن النفس تموت ولا تعود ، فجحدوا الآخرة ، وأنكروا الجنة والنار ، [والحشر والنشر] ، والقيامة والحساب ، فلم يبق عندهم للطاعة ثواب ، ولا للمعصية عقاب ؛ فانحل عنهم اللجام ، وانهمكوا في الشهوات انهماك الأنعام .

وهؤلاء ايضاً زنادقة : لأن أصل الايمان هو الإيمان بالله واليوم الآخر . وهؤلاء جحدوا اليوم الآخر ، وإن آمنوا بالله وصفاته .

الصنف الثالث : الالهيون ، وهم المتأخرون منهم [مثل] : سقراط ، وهو أستاذ أفلاطون ، وأفلاطون أستاذ أرسطاطاليس ، وأرسطاطاليس هو الذي رتب لهم المنطق ، وهذّب [لهم] العلوم ، وحرّر لهم ما لم يكن محرراً من قبلُ ، وأنضَجَ لهم ما كان فِجاً من علومهم ، وهم بجملتهم ردوا على الصنفين الأولين من الدهرية والطبيعية ، وأوردوا في الكشف عن فضائحهم ما أغنوا به غيرهم . « وكفى الله المؤمنين القتال بتقاتلهم » . ثم رد أرسطاطاليس على افلاطون وسقراط ، ومن كان قبله من الإلهيين ، رداًلم يقصر فيه حتى تبرأ عن جميعهم ؛ إلا أنه استبقى أيضاً من رذائل كفرهم وبدعتهم بقايا لم يوفق للنزوع عنها ، فوجب تكفيرهم وتكفير شيعتهم من المتفلسفة الإسلاميين ، كابن سينا والفارابي وغيرهم . على أنه لم يقم بنقل علم أرسطاطاليس أحد من متفلسفة الإسلاميين كقيام هذين الرجلين. وما نقله غيرهما ليس يخلو عن تخبيط وتخليط يتشوش فيه قلب المطالع حتى لا يفهم؛ وما لا يُفهم كيف يُرد أو يقبل؟ ومجموع ما صح عندنا من فلسفة أرسطاطاليس ، بحسب نقل هذين الرجلين ، ينحصر في ثلاثة اقسام :

١ — قسم يجب التكفير به ؛ ٢ — وقسم يجب التبديع به ؛ ٣ — وقسم لا يجب إنكاره أصلاً . فلنفصّله .

أقسام علومهم

اعلم : أن علومهم بالنسبة إلى الغرض الذي نطلبه ستة اقسام : رياضية ، ومنطقية ، وطبيعية ، وإلهية ، وسياسية ، وخُلُقية .

١ — **اما الرياضية** : فتتعلق بعلم الحساب والهندسة وعلم هيئة العالم ، وليس يتعلق شيء منها بالأمور الدينية نفياً وإثباتاً ، بل هي أمور برهانية لا سبيل إلى مجاحدتها بعد فهمها ومعرفتها . وقد تولدت منها آفتان :

احداهما : ان من ينظر فيها يتعجب من دقائقها ومن ظهور براهينها ، فيحسن بسبب ذلك اعتقادُه في الفلاسفة ، ويحسب أن جميع علومهم في الوضوح [وفي] وثاقة البرهان كهذا العلم . ثم يكون قد سمع من كفرهم وتعطيلهم وتهاونهم بالشرع ما تداولته الألسنة ، فيكفر بالتقليد المحض ويقول : لو كان الدين حقاً لما اختفى على هؤلاء مع تدقيقهم في هذا العلم ! فإذا عرف بالتسامع كفرهم وجحدهم ، استدل على ان الحق هو الجحد والإنكار للدين . وكم رأيت من يضل عن الحق بهذا العذر ولا مستند له سواه ! واذا قيل له : الحاذق في صناعة واحدة ليس يلزم أن يكون حاذقاً في كل صناعة ، فلا يلزم أن يكون الحاذق في الفقه والكلام حاذقاً في الطب ولا أن يكون الجاهل بالعقليات جاهلاً بالنحو ، بل لكل صناعة أهل بلغوا فيها [رتبة] البراعة والسبق ، وإن كان الحمق والجهل (قد) يلزمهم في غيرها . فكلام الاوائل في الرياضيات برهاني ، وفي الإلهيات تخميني ؛ لا يعرف ذلك إلا من جرّبه وخاض فيه . فهذا إذا قرر على هذا الذي ألحَدَ بالتقليد ، لم يقع منه موقع القبول ، بل تحمله غلبة الهوى ، والشهوة الباطلة ، وحب التكايس على أن يُصرّ على تحسين الظن بهم في العلوم كلها .

فهذه آفة عظيمة لأجلها يجب زجر كل من يخوض في تلك العلوم ، فانها وإن لم تتعلق بأمر الدين ، ولكن لما كانت من مبادئ علومهم سرى اليه شرهم وشؤمهم ، فقل من يخوض فيها الا وينخلع من الدين وينحل عن رأسه لجام التقوى .

الآفة الثانية : نشأت من صديق للاسلام جاهل ، ظن ان الدين ينبغي أن ينصر بإنكار كل علم منسوب اليهم : فأنكر جميع علومهم وادعى جهلهم فيها حتى أنكر قولهم في الكسوف والخسوف ، وزعم أن ما قالوه على خلاف الشرع . فلما قرع ذلك سمع من عرف ذلك بالبرهان القاطع ، لم يشك في برهانه ، ولكن

اعتقد أن الاسلام مبني على الجهل وإنكار البرهان القاطع ، فازداد للفلسفة حباً وللاسلام بغضاً ؛ ولقد عظم على الدين جناية من ظن أن الاسلام ينصر بإنكار هذه العلوم ، وليس في الشرع تعرض لهذه العلوم بالنفي والاثبات ، ولا في هذه العلوم تعرض للامور الدينية . وقولـه ، ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله (تعالى) لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته فإذا رأيتم ذلك فافزعوا إلى ذكر الله (تعالى والى الصلاة) » ، ليس في هذا ما يوجب انكار علم الحساب المعرف بمسير الشمس والقمر واجتماعها او مقابلتهما على وجه مخصوص . أما قوله (عليه السلام) : « لكن الله اذا تجلى لشيء خضع له » فليس توجد هذه الزيادة في الصحيح أصلاً . فهذا حكم الرياضيات وآفتها .

٢ — وأما **المنطقيات** : فلا يتعلق شيء منها بالدين نفياً واثباتاً، بل هي النظر في طرق الادلة والمقاييس ، وشروط مقدمات البرهان وكيفية تركيبها ، وشروط الحد الصحيح وكيفية ترتيبه . وان العلم اما تصور وسبيل معرفته الحد ، واما تصديق وسبيل معرفته البرهان ، وليس في هذا ما ينبغي أن ينكر، بل هو (من) جنس ما ذكره المتكلمون وأهل النظر في الادلة ، وانما يفارقونهم بالعبارات والاصطلاحات ، وبزيادة الاستقصاء في التعريفات والتشعيبات ؛ ومثال كلامهم فيها قولهم : اذا ثبت أن كل «ا» «ب» لزم ان بعض « ب » « ا » ، أي اذا ثبت أن كل انسان حيوان ، لزم أن بعض الحيوان انسان . ويعبرون عن هذا بأن الموجبة الكلية تنعكس موجبة جزئية . وأي تعلق لهذا بمهمات الدين حتى يجحد وينكر؟ فإذا انكر لم يحصل من انكاره عند اهل المنطق الا سوء الاعتقاد في عقل المنكر ، بل في دينه الذي يزعم أنه موقوف على مثل هذا الانكار ، نعم لهم نوع من الظلم في هذا العلم ؛ وهو أنهم يجمعون للبرهان شروطاً يعلم انها تورث اليقين لا محالة ، لكنهم عند الانتهاء الى المقاصد الدينية ما امكنهم الوفاء بتلك الشروط ، بل تساهلوا غاية التساهل ؛ وربما ينظر في المنطق ايضاً من يستحسنه

ويراه واضحاً ، فيظن ان ما ينقل عنهم من الكفريات مؤيد بمثل تلك البراهين ، فيستعجل بالكفر قبل الانتهاء الى العلوم الالهية .

فهذه الآفة ايضاً متطرقة اليه .

٣ — وأما (علم) **الطبيعيات** : فهو بحث عن عالم السماوات وكواكبها وما تحتها من الاجسام المفردة : كالماء والهواء والتراب والنار ، ومن الاجسام المركبة : كالحيوان والنبات والمعادن ، وعن اسباب تغيرها واستحالتها وامتزاجها . وذلك يضاهي بحث الطب عن جسم الانسان ، واعضائه الرئيسة والخادمة ، واسباب استحالة مزاجه ، وكما ليس من شرط الدين انكار علم الطب ، فليس من شرطه ايضاً انكار ذلك العلم ، الا في مسائل معينة ، ذكرناها في كتاب « تهافت الفلاسفة » . وما عداها مما يجب المخالفة فيها ، فعند التأمل يتبين انها مندرجة تحتها ، وأصل جملتها ان تعلم ان الطبيعة مسخرة لله تعالى ، لا تعمل بنفسها ، بل هي مستعملة من جهة فاطرها . والشمس والقمر والنجوم والطبائع مسخرات بأمره لا فعل لشيء منها بذاته عن ذاته .

٤ — وأما **الالهيات** : ففيها اكثر اغاليطهم ، فما قدروا على الوفاء بالبرهان على ما شرطوه في المنطق ، ولذلك كثر الاختلاف بينهم فيها . ولقد قرب مذهب أرسطاطاليس فيها من مذاهب الاسلاميين ، على ما نقله الفارابي وابن سينا . ولكن مجموع ما غلطوا فيه يرجع الى عشرين أصلاً ، يجب تكفيرهم في ثلاثة منها ، وتبديعهم في سبعة عشر . ولإبطال مذهبهم في هذه المسائل العشرين ، صنّفنا كتاب « التهافت » . أما المسائل الثلاث ، فقد خالفوا فيها كافة الاسلاميين وذلك في قولهم :

١) ان الاجساد لا تحشر ، وإنما المثاب والمعاقَب هي الارواح المجردة ، (والمثوبات) والعقوبات روحانية لا جسمانية ؛

ولقد صدقوا في إثبات الروحانية ، فإنها ثابتة أيضاً ، ولكن كذبوا في إنكار الجسمانية ، وكفروا بالشريعة فيما نطقوا به .

٢) ومن ذلك قولهم : « إن الله تعالى يعلم الكليات دون الجزئيات » ؛ وهذا أيضاً كفر صريح ، بل الحق أنه : « لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض » .

٣) ومن ذلك قولهم بقدم العالم وأزليته فلم يذهب أحد من المسلمين إلى شيء من هذه المسائل .

وأما ما وراء ذلك من نفيهم الصفات ، وقولهم انه عالم بالذات ، لا بعلم زائد (على الذات) وما يجري مجراه ، فمذهبهم فيها قريب من مذهب المعتزلة ولا يجب تكفير المعتزلة بمثل ذلك . وقد ذكرنا في كتاب « فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة » ما يتبين به فساد رأي من يتسارع الى التكفير في كل ما يخالف مذهبه .

٥ — وأما **السياسيات** : فجميع كلامهم فيها يرجع الى الحكم المصلحية المتعلقة بالامور الدنيوية (والإيالة) السلطانية ، وإنما أخذوها من كتب الله المنزلة على الانبياء ، ومن الحكم المأثورة عن سلف الانبياء .

٦ — وأما **الخلقية** : فجميع كلامهم (فيها) يرجع الى حصر صفات النفس وأخلاقها ، وذكر أجناسها وأنواعها وكيفية معالجتها ومجاهدتها ، وإنما أخذوها من كلام الصوفية ، وهم المتألهون المواظبون على ذكر الله تعالى ، وعلى مخالفة الهوى وسلوك الطريق الى الله تعالى بالإعراض عن ملاذّ الدنيا . وقد انكشف لهم في مجاهدتهم من أخلاق النفس وعيوبها ، وآفات اعمالها ما صرحوا بها ، فأخذها الفلاسفة ومزجوها بكلامهم ، توسلاً بالتجمل بها الى ترويج باطلهم. ولقد كان في عصرهم ، بل في كل عصر ، جماعة من المتألهين ، لا يُخلي الله

[سبحانه] العالم عنهم ، فإنهم أوتاد الارض ، ببركاتهم تنزل الرحمة على أهل الارض كما ورد في الخبر حيث قال ﷺ : « بهم تمطرون وبهم ترزقون ومنهم كان أصحاب الكهف » . وكانوا في سالف الأزمنة ، على ما نطق به القرآن ، فتولد من مزجهم كلام النبوة وكلام الصوفية بكتبهم آفتان : آفة في حق القابل ، وآفة في حق الراد :

١) أما **الآفة التي في حق الراد فعظيمة** : إذ ظنت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مُدوَّنا في كتبهم ، وممزوجاً بباطلهم ، ينبغي أن يُهجر ولا يُذكر بل يُنكر على [كل] من يذكره ، إذ لم يسمعوه أولاً إلا منهم ، فسبق الى عقولهم الضعيفة انه باطل ، لان قائله مُبطل ؛ كالذي يسمع من النصراني قول : « لا إله إلا الله ، عيسى رسول الله » ، فينكره ويقول : « هذا كلام النصارى » ؛ ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول ، أو باعتبار انكاره نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ! ؟ فإن لم يكن كافراً الا باعتبار انكاره ، فلا ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر مما هو حق في نفسه ، وان كان ايضاً حقاً عنده . وهذه عادة ضعفاء العقول ، يعرفون الحق بالرجال ، لا الرجال بالحق. والعاقل يقتدي بسيد العقلاء علي، رضي الله عنه، حيث قال: «لا تعرف الحق بالرجال (بل) اعرف الحق تعرف أهله» و(العارف) العاقل يعرف الحق ، ثم ينظر في نفس القول : فإن كان حقاً ، قبله سواء كان قائله مبطلاً أو محقاً؛ بل ربما يحرص على انتزاع الحق من أقاويل أهل الضلال ، عالماً بأن معدن الذهب الرغام . ولا بأس على الصراف ان ادخل يده في كيس القلاب ، وانتزع الإبريز الخالص من الزيف والبهرج ، مهما كان واثقاً ببصيرته ؛ وانما يزجر عن معاملة القلاب القرويّ ، دون الصيرفي (البصير) ؛ ويمنع من ساحل البحر الأخرقُ ، دون السباح الحاذق ؛ ويُصد عن مس الحية الصبي دون المعزِّم البارع .

ولعمري ! لما غلب على اكثر الخلق ظنهم بانفسهم الحذاقة والبراعة ، وكمال

العقل (وتمام الآلة) في تمييز الحق عن (الباطل ، والهدى عن) الضلالة ، وجب حسم الباب في زجر الكافة عن مطالعة كتب أهل الضلال ما أمكن، اذ لا يسلمون عن الآفة الثانية التي سنذكرها (أصلاً) ، وان سلموا عن (هذه) الآفة التي ذكرناها .

ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا في اسرار علوم الدين ، طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، ولم تنفتح الى اقصى غايات المذاهب بصائرهم ، وزعمت أن تلك الكلمات من كلام الاوائل ، مع ان بعضها من مولدات الخواطر — ولا يبعد ان يقع الحافر على الحافر — وبعضها يوجد في الكتب الشرعية ، واكثرها موجود معناه في كتب الصوفية . وهب أنها لم توجد الا في كتبهم ، فإذا كان ذلك الكلام معقولاً في نفسه ، مؤيداً بالبرهان ، ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة ، فلمَ ينبغي ان يهجر ويترك ؟ فلو فتحنا هذا الباب ، وتطرقنا الى ان يهجر كل حق سبق اليه خاطر مبطل ، للزمنا ان نهجر كثيراً من الحق ، ولزمنا ان نهجر جملة آيات من آيات القرآن واخبار الرسول وحكايات السلف وكلمات الحكماء والصوفية ، لأن صاحب كتاب « اخوان الصفا » اوردها في كتابه مستشهداً بها ومستدرجاً قلوب الحمقى بواسطتها الى باطله ؛ ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا بايداعهم إياه كتبهم . وأقل درجات العالم : أن يتميز عن العامي الغُمر ، فلا يعاف العسل ، وإن وجده في محجمة الحجّام ، ويتحقق أن المحجمة لا تغير ذات العسل، فان نفرة الطبع عنه مبنية على جهل عامي منشؤه أن المحجمة، انما صنعت للدم المستقذَر ، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة ، ولا يدري أنه مستقذر لصفة في ذاته ؛ فاذا عدمت (هذه) الصفة في العسل ، فكونه في ظرفه لا يكسبه تلك الصفة، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار، وهذا وهم باطل، وهو غالب على أكثر الخلق . فاذا نسبت الكلام وأسندته الى قائل حسن فيه اعتقادهم ، قبلوه وإن كان باطلاً ؛ وإن أسندته الى من ساء فيه اعتقادهم ردوه

وان كان حقاً . فأبداً يعرفون الحق بالرجال ولا يعرفون الرجال بالحق ، وهو غاية الضلال ! هذه آفة الرد .

٢) **والآفة الثانية آفة القبول** : فان من نظر في كتبهم « كاخوان الصفا » وغيره ، فرأى ما مزجوه بكلامهم من الحكم النبوية ، والكلمات الصوفية ، ربما استحسنها وقبلها ، وحسن اعتقاده فيها ، فيسارع الى قبول باطلهم الممزوج به ، لحسن ظن حصل فيما رآه واستحسنه ، وذلك نوع استدراج الى الباطل .

ولاجل هذه الآفة يجب الزجر عن مطالعة كتبهم لما فيها من الغدر والخطر. وكما يجب صون من لا يحسن السباحة عن مزالق الشطوط ، يجب صون الخلق عن مطالعة تلك الكتب . وكما يجب صون الصبيان عن مس الحيات، يجب صون الاسماع عن مختلط تلك الكلمات . وكما يجب على المعزِّم أن لا يمس الحية بين يدي ولده الطفل ، إذا علم أنه سيقتدي به ويظن أنه مثله ، بل يجب عليه أن يحذره [منه]، بأن يحذر هو [في] نفسه [ولا يمسها] بين يديه، فكذلك يجب على العالم الراسخ مثله . وكما أن المعزِّم الحاذق اذا أخذ الحية وميز بين الترياق والسم، واستخرج منها الترياق وأبطل السم فليس له أن يشح بالترياق على المحتاج اليه. وكذا الصراف الناقد البصير إذا أدخل يده في كيس القلّاب ، وأخرج منه الإبريز الخالص ، واطّرح الزيف والبهرج ، فليس له أن يشح بالجيد المرضي على من يحتاج اليه ؛ فكذلك العالم . وكما أن المحتاج الى الترياق ، اذا اشمأزت نفسه منه، حيث علم أنه مستخرج من الحية التي هي مركز السم [وجب تعريفه]، والفقير المضطر الى المال، اذا نفر عن قبول الذهب المستخرج من كيس القلّاب، وجب تنبيهه على ان نفرته جهل محض، هو سبب حرمانه الفائدة التي هي مطلبه، وتحتم تعريفه أن قرب الجوار بين الزيف والجيد لا يجعل الجيد زيفاً ، كما لا يجعل الزيف جيداً ، فكذلك قرب الجوار بين الحق والباطل ، لا يجعل الحق باطلاً ، كما لا يجعل الباطل حقاً .

فهذا (مقدار) ما أردنا ذكره من آفة الفلسفة وغائلتها .

٣ — مذهب التعليم وغائلته

ثم اني لما فرغت من علم الفلسفة وتحصيله وتفهمه وتزييف ما يزيف منه، علمت ان ذلك ايضاً غير واف بكمال الغرض، وان العقل ليس مستقلاً بالاحاطة بجميع المطالب، ولا كاشفاً للغطاء عن جميع المعضلات. وكان قد نبغت نابغة التعليمية، وشاع بين الخلق تحدثهم بمعرفة معنى الامور من جهة الامام المعصوم القائم بالحق، فعنّ لي ان ابحث في مقالاتهم، لأطلع على ما في كنانتهم. ثم اتفق ان ورد عليّ امر جازم من حضرة الخلافة، بتصنيف كتاب يكشف [عن] حقيقة مذهبهم. فلم يسعني مدافعته، وصار ذلك مستحثاً من خارج، ضميمة للباعث الاصلي من الباطن، فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم. وكان قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر اهل العصر، لا على المنهاج المعهود من سلفهم. فجمعت تلك الكلمات، (ورتبتها) ترتيباً محكماً مقارناً للتحقيق، واستوفيت الجواب عنها، حتى أنكر بعض اهل الحق (مني) مبالغتي في تقرير حجتهم، فقال: «هذا سعي لهم، فانهم كانوا يعجزون عن نصرة مذهبهم بمثل هذه الشبهات لولا تحقيقك لها، وترتيبك إياها». وهذا الانكار من وجه حق، فلقد أنكر احمد ابن حنبل على الحارث المحاسبي (رحمهما الله)، تصنيفه في الرد على المعتزلة؛ فقال الحارث: «الرد على البدعة فرض» فقال احمد: «نعم، ولكن حكيت شبهتهم اولاً ثم اجبت عنها؛ فبمَ تأمن ان يطالع الشبهة من يعلق ذلك بفهمه، ولا يلتفت الى الجواب، او ينظر في الجواب ولا يفهم كنهه؟».

وما ذكره احمد بن حنبل حق، ولكن في شبهة (لم تنتشر) ولم تشتهر. فأما اذا انتشرت، فالجواب عنها واجب ولا يمكن الجواب [عنها] إلا بعد الحكاية.

نعم، ينبغي ان لا يتكلف لهم شبهة لم [يتكلفوها]؛ ولم اتكلف انا ذلك، بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من اصحابي المختلفين إلي، بعد ان كان قد التحق بهم؛ وانتحل مذهبهم، وحكى انهم يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم، بأنهم لم يفهموا بعد حجتهم. ثم ذكر تلك الحجة وحكاها عنهم، فلم ارض لنفسي ان يظن بي الغفلة عن اصل حجتهم، فلذلك اوردتها، ولا ان يظن بي اني — وان سمعتها — لم افهمها، فلذلك قررتها.

والمقصود، اني قررت شبهتهم الى اقصى الامكان، ثم اظهرت فسادها [بغاية البرهان].

والحاصل: أنه لا حاصل عند هولاء ولا طائل لكلامهم. ولولا سوء نصرة الصديق الجاهل، لما انتهت تلك البدعة — مع ضعفها — الى هذه الدرجة؛ ولكن شدة التعصب، دعت الذابين عن الحق الى تطويل النزاع معهم في مقدمات كلامهم، والى مجاحدتهم في كل ما نطقوا به، فجاحدوهم في دعواهم: «الحاجة الى التعليم والمعلم.»، وفي دعواهم أنه: «لا يصلح كل معلم، بل لا بد من معلم معصوم.» وظهرت حجتهم في اظهار الحاجة الى التعليم والمعلم، وضعف قول المنكرين في مقابلته، فاغتر بذلك جماعة وظنوا أن ذلك من قوة مذهبهم وضعف مذهب المخالفين لهم، ولم يفهموا أن ذلك لضعف ناصر الحق وجهله بطريقه؛ بل الصواب الاعتراف بالحاجة الى المعلم، وانه لا بد وأن يكون (المعلم) معصوماً، ولكن معلمنا المعصوم (هو) محمد ﷺ فإذا قالوا: «هو ميت»، فنقول: «ومعلمكم غائب.»، فإذا قالوا: «معلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد، وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا أو اشكل عليهم مشكل.» فنقول: «ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم في البلاد واكمل التعليم اذ قال الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم [وأتممت عليكم نعمتي]». وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا يضر غيبته.

فبقي قولهم : « كيف تحكمون في ما لم تسمعوه ؟ أبالنص ولم تسمعوه ، أم بالاجتهاد والرأي وهو مظنة الخلاف ؟ » فنقول : « نفعل ما فعله معاذ اذ بعثه رسول الله عليه السلام إلى اليمن : أن نحكم بالنص عند وجود النص ، وبالاجتهاد عند عدمه . (بل) كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام الى اقاصي البلاد ، اذ لا يمكنه ان يحكم بالنص ، فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع الغير المتناهية ، ولا يمكنه الرجوع في كل واقعة الى بلدة الإمام ، والى أن يقطع المسافة ويرجع فيكون المستفتي قد مات ، وفات الانتفاع بالرجوع . فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق الا أن يصلي بالاجتهاد ، اذ لو سافر الى بلدة الإمام لمعرفة القبلة ، فيفوت وقت الصلاة . فإذن ، جازت الصلاة الى غير القبلة بناء على الظن . ويقال : « ان المخطىء في الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران » . فكذلك في جميع المجتهدات ، وكذلك أمر صرف الزكاة الى الفقير ، فربما يظنه فقيراً باجتهاده وهو غني باطناً بإخفائه ماله ، فلا يكون مؤاخذاً به وان أخطأ ، لانه لم يؤاخذ الا بموجب ظنه . فإن قال : « ظن مخالفه كظنه . » فأقول : « هو مأمور باتباع ظن نفسه ، كالمجتهد في القبلة يتبع ظنه وان خالفه غيره . » فإن قال : « فالمقلد يتبع أبا حنيفة والشافعي (رحمهما الله) أم غيرهما» . فاقول : «فالمقلد في القبلة عند الاشتباه ، إذا اختلف عليه المجتهدون ، كيف يصنع ؟ » فسيقول : « له مع نفسه اجتهاد في معرفة الافضل الاعلم بدلائل القبلة ، فيتبع ذلك الاجتهاد ؛ فكذلك في المذاهب . »

فردّ الخلق الى الاجتهاد — ضرورة — الانبياء والأئمة مع العلم بانهم (قد) يخطئون ، بل قال رسول الله ﷺ : « أنا أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر . » أي انا أحكم بغالب الظن الحاصل من قول الشهود ، وربما أخطأوا فيه . ولا سبيل الى الامن من الخطأ للأنبياء في مثل هذه المجتهدات ، فكيف يطمع في ذلك ؟

ولهم ههنا سؤالان : أحدهما قولهم : «هذا وإن صح في المجتهدات فلا يصح في

قواعد العقائد ، اذ المخطىء فيه غير معذور ، فكيف السبيل اليه ؟ » فأقول : « قواعد العقائد يشتمل عليها الكتاب والسنة ؛ وما وراء ذلك من التفصيل والمتنازع فيه ، يعرف الحق فيه بالوزن بالقسطاس المستقيم . وهي الموازين التي ذكرها الله (تعالى) في كتابه ، وهي خمسة ذكرتها في «كتاب القسطاس المستقيم . » فإن قال : « خصومك يخالفونك في ذلك الميزان . » فأقول : « لايتصور أن يفهم ذلك الميزان ثم يخالف فيه ،[اذ لا يخالف فيه] أهل التعليم ، لاني استخرجته من القرآن وتعلمته منه ، ولا يخالف فيه أهل المنطق ، لانه موافق لما شرطوه في المنطق ، غير مخالف له ؛ ولا يخالف فيه المتكلم لانه موافق لما يذكره في ادلة النظريات ، وبه يعرف الحق في الكلاميات . » فإن قال : « فان كان في يدك مثل هذا الميزان فلمَ لا ترفع الخلاف بين الخلق ؟ » فأقول : « لو أصغوا إلي لرفعت الخلاف بينهم ؛ وذكرت طريق رفع الخلاف في كتاب القسطاس المستقيم ، فتأمله لتعلم أنــه حق وأنه يرفع الخلاف قطعاً لو أصغوا ولا يصغون [اليه] بأجمعهم ! بل قد أصغى إلي طائفة ، فرفعت الخلاف بينهم . وإمامك يريد رفع الخلاف بينهم مع عدم اصغائهم ، فلمَ لم يرفع الى الآن ؟ ولمَ لم يرفع علي ، رضي الله عنه ، وهو رأس الائمة ؟ او يدعي أنه يقدر على حمل كافتهم على الإصغاء قهراً ، فلمَ لم يحملهم الى الآن ؟ ولأي يوم اجله ؟ وهل حصل بين الخلق بسبب دعوته الا زيادة خلاف وزيادة مخالف ؟ نعم ! كان يخشى من الخلاف نوع من الضرر لا ينتهي الى سفك الدماء ، وتخريب البلاد وايتام الاولاد ، وقطع الطرق ، والإغارة على الاموال . وقد حدث في العالم من بركات رفعكم الخلاف [من الخلاف] ما لم يكن بمثله عهد . » فإن قال : « ادعيت أنك ترفع الخلاف بين الخلق ولكن المتحير بين المذاهب المتعارضة ، والاختلافات المتقابلة ، لم يلزمه الإصغاء اليك دون خصمك ، واكثر الخصوم يخالفونك ، ولا فرق بينك وبينهم . » وهذا هو سؤالهم الثاني ، فأقول : « هذا اولاً ينقلب عليك ، فإنك اذا دعوت هذا المتحير الى نفسك فيقول المتحير ،

بم صرت اولى من مخالفيك ، واكثر اهل العلم يخالفونك ؟ فليت شعري ! بماذا تجيب ؟ أتجيب بأن تقول : إمامي منصوص عليه ؟ فمن يصدقك في دعوى النص ، وهو لم يسمع النص من الرسول ؟ وانما يسمع دعواك مع تطابق اهل العلم على اختراعك وتكذيبك . ثم هب أنه سلم لك النص ؛ فإن كان متحيراً في اصل النبوة ، فقال : هب ان امامك يدلي بمعجزة عيسى عليه السلام فيقول : الدليل على صدقي أني أحيي أباك ، فأحياه ، فناطقني بأنه محق ، فبماذا اعلم صدقه ؟ ولم يعلم كافة الخلق صدق عيسى عليه السلام بهذه المعجزة، بل عليه من الاسئلة المشكلة ما لا يدفع الا بدقيق النظر العقلي ؛ والنظر العقلي لا يوثق به عندك ، ولا يعرف دلالة المعجزة على الصدق ما لم يعرف السحر والتمييز بينه وبين المعجزة ، وما لم يعرف أن الله لا يضل عباده . — وسؤال الإضلال وعسر [تحرير] الجواب عنه مشهور — فبماذا تدفع جميع ذلك ؟ ولم يكن امامك أولى بالمتابعة من مخالفه ! » فيرجع الى الادلة النظرية التي ينكرها ، وخصمه يدلي بمثل تلك الادلة واوضح منها . وهذا السؤال قد انقلب عليهم انقلاباً عظيماً ، لو اجتمع أولهم وآخرهم على أن يجيبوا عنه جواباً لم يقدروا عليه .

وانما نشأ الفساد من جماعة من الضعفة ناظروهم ، فلم يشتغلوا بالقلب ، بل بالجواب . وذلك مما يطول فيه الكلام ، وما لا يسبق سريعاً الى الافهام ، فلا يصلح للإفحام . فإن قال قائل : « فهذا هو القلب ، فهل عنه جواب ؟ » فاقول : « نعم ! جوابه أن المتحير لو قال : انا متحير ، ولم يعين المسألة التي هو متحير فيها ، يقال له : انت كمريض يقول : انا مريض ولا يعين مرضه ، ويطلب علاجه . فيقال له : ليس في الوجود علاج للمرض المطلق ، بل لمرض معين : من صداع او اسهال او غيرهما . فكذلك المتحير ينبغي أن يعين ما هو متحير فيه ؛ فإن عين المسألة عرّفته الحق فيها بالوزن بالموازين الخمسة ، التي لا يفهمها أحد الا ويعترف بانه الميزان الحق ، الذي يوثق بكل ما يوزن به ، فيفهم الميزان ،

ويفهم منه ايضاً صحة الوزن ، كما يفهم متعلم علم الحساب نفس الحساب ، وكون المحاسب المعلم عالماً بالحساب وصادقاً فيه » . وقد أوضحت ذلك في كتاب « القسطاس المستقيم » في مقدار عشرين ورقة ؛ فليتأمل .

وليس المقصود الآن بيان فساد مذهبهم ، فقد ذكرت ذلك في كتاب « المستظهري » اولاً ؛ وفي كتاب « حجة الحق » ثانياً ، وهو جواب كلام لهم عُرض علي ببغداد ؛ وفي كتاب « مفصل الخلاف » الذي هو اثنا عشر فصلاً ثالثاً ، وهو جواب كلام عُرض علي بهمدان ؛ وفي كتاب « الدرج » المرقوم «بالجداول» رابعاً ، وهو من ركيك كلامهم الذي عرض علي بطوس ؛ وفي كتاب « القسطاس المستقيم » خامساً ، وهو كتاب مستقل مقصوده بيان ميزان العلوم واظهار الاستغناء عن الامام [المعصوم] لمن أحاط به .

بل المقصود أن هؤلاء ليس معهم شيء من الشفاء المنجي من ظلمات الآراء ، بل هم ، مع عجزهم عن اقامة البرهان على تعيين الإمام ، طال ما جاريناهم فصدقناهم في الحاجة الى التعليم والى المعلم المعصوم وأنه الذي عينوه ، ثم سألناهم عن العلم الذي تعلموه من هذا المعصوم وعرضنا عليهم اشكالات فلم يفهموها ، فضلاً عن القيام بحلها ! فلما عجزوا أحالوا [على] الإمام الغائب ، وقالوا : « (انه) لا بد من السفر اليه . » والعجب أنهم ضيعوا عمرهم في طلب المعلم وفي التبجح بالظفر به ، ولم يتعلموا منه شيئاً أصلاً ، كالمتضمّخ بالنجاسة ، يتعب في طلب الماء حتى اذا وجده لم يستعمله ، وبقي متضمخاً بالخبائث .

ومنهم من ادعى شيئاً من علمهم ، فكان حاصل ما ذكره شيئاً من ركيك فلسفة فيثاغورس : وهو رجل من قدماء الاوائل ، ومذهبه ارك مذاهب الفلسفة ، وقد رد عليه ارسطاطاليس ، بل استركّ كلامه واسترذله ، وهو المحكي في كتاب « إخوان الصفا » ، وهو على التحقيق حشو الفلسفة

فالعجب ممن يتعب طول العمر في طلب العلم ثم يقنع بمثل ذلك العلم

الركيك المستغث ، ويظن بأنه ظفر بأقصى مقاصد العلوم ! فهؤلاء ايضاً جربناهم وسبرنا ظاهرهم وباطنهم ؛ فرجع حاصلهم الى استدراج العوام ، وضعفاء العقول ببيان الحاجة الى المعلم ، ومجادلتهم في انكارهم الحاجة الى التعليم بكلام قوي مفحم ، حتى اذا ساعدهم على الحاجة الى المعلم مساعد ، وقال : « هات علمه وأفِدنا من تعليمه ! » وقف وقال : « الآن اذا سلمت لي هذا فاطلبه ، فانما غرضي هذا القدر فقط . » اذ علم انه لو زاد على ذلك لافتضح ولعجز عن حل أدنى الاشكالات ، بل عجز عن فهمه ، فضلاً عن جوابه .

فهذه حقيقة حالهم فاخبرهم تَقْتُلهم فلما خبرناهم نفضنا اليد عنهم (ايضاً).

٤ — طرق الصوفية

ثم اني ، لما فرغت من هذه العلوم ، أقبلت بهمتي على طريق **الصوفية** وعلمت أن طريقتهم انما تتم بعلم وعمل ؛ وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس . والتنزه عن اخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة ، حتى يتوصل (بها) الى تخلية القلب عن غير الله (تعالى) وتحليته بذكر الله .

وكان العلم أيسر عليّ من العمل . فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل : « قوت القلوب » لأبي طالب المكي (رحمه الله) ، وكتب « الحارث المحاسبي » ، والمتفرقات المأثورة عن « الجنيد » و « الشبلي » و « ابي يزيد البسطامي » [قدس الله ارواحهم] ، وغيرهم من المشايخ ؛ حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية ، وحصلت ما يمكن ان يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع . فظهر لي أن أخص خواصهم ، ما لا يمكن الوصول اليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات . وكم من الفرق بين ان تعلم حد الصحة وحد الشبع واسبابهما وشروطهما ، وبين ان تكون صحيحاً وشبعان ؟ وبين ان تعرف حد السكر ، وانه عبارة عن حالة تحصل من استيلاء ابخرة تتصاعد من المعدة على معادن الفكر ، وبين ان تكون سكران ! بل السكران لا يعرف حدّ السكر وعِلمه وهو سكران وما معه من علمه شيء ! والصّاحي يعرف حدّ السُكر واركانه وما معه من السكر شيء . والطبيب في حالة المرض يعرف حدّ الصحة واسبابها وأدويتها ، وهو فاقد الصحة . فكذلك فرقٌ بين ان تعرف حقيقة الزهد وشروطه واسبابه ، وبين ان تكون حالك الزهد وعزوف النفس عن الدنيا !

فعلمت يقيناً انهم ارباب الاحوال ، لا اصحاب الاقوال . وان ما يمكن تحصيله

بطريق العلم فقد حصلته ، ولم يبقَ الا ما لا سبيل اليه بالسماع والتعلم ، بل بالذوق والسلوك . وكان (قد) حصل معي — من العلوم التي مارستها والمسالك التي سلكتها ، في التفتيش عن صنفي العلوم الشرعية والعقلية — ايمانٌ يقينيٌ بالله تعالى ، وبالنبوّة ، وباليوم الآخر.

فهذه الاصول الثلاثة من الايمان كانت قد رسخت في نفسي ، لا بدليل معين محرر ، بل باسبابٍ وقرائن وتجارب لا تدخل تحت الحصر تفاصيلُها .

وكان قد ظهرعندي انه لا مطمع (لي) في سعادة الآخرة إلا بالتقوى ، وكف النفس عن الهوى ، وأن رأس ذلك كله ، قطعُ علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور ، والإنابة الى دار الخلود ، والاقبال بكُنه الهمة على الله تعالى . وان ذلك لا يتم الا بالإعراض عن الجاه والمال ، والهرب من الشواغل والعلائق .

ثم لاحظت احوالي ؛ فاذا أنا منغمس في العلائق ، وقد أحدقت بي من الجوانب ؛ ولاحظت أعمالي — وأحسنها التدريس والتعليم — فاذا انا فيها مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة في طريق الآخرة .

ثم تفكرت في نيتي في التدريس فاذا هي غير خالصة لوجه الله تعالى ، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت ؛ فتيقنت أني على شفا جُرُف هار ، وأني قد اشفيت على النار ، إن لم اشتغل بتلافي الاحوال .

فلم ازل اتفكر فيه مدة ، وانا بعدُ على مقام الاختيار ، أصمم العزم على الخروج من بغداد ومفارقة تلك الاحوال يوماً ، واحل العزم يوماً ، وأقدم فيه رجلاً وأؤخر عنه أخرى . لا تصدق لي رغبة في طلب الآخرة بكرة ، إلا ويحمل عليها جند الشهوة حملة فيفترها عشية . فصارت شهوات الدنيا تجاذبني بسلاسلها الى المقام ، ومنادي الايمان ينادي : الرحيل ! الرحيل ! فلم يبق من العمر إلا قليل ، وبين يديك السفر الطويل ، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء

وتخييل ! فان لم تستعد الآن للآخرة فمتى تستعد ؟ وإن لم تقطع الآ ن[هذه العلائق] فمتى تقطع ؟ فعند ذلك تنبعث الداعية ، وينجزم العزم على الهرب والفرار .

ثم يعود الشيطان ويقول : « هذه حال عارضة ، إياك أن تطاوعها ، فانها سريعة الزوال ؛ فان أذعنت لها وتركت هذا الجاه العريض ، والشأن المنظوم الخالي عن التكدير والتنغيص ، والأمر المسلم الصافي عن منازعة الخصوم ، ربما التفتت اليه نفسك ، ولا يتيسر لك المعاودة . »

فلم ازل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا ، ودواعي الآخرة ، قريباً من ستة أشهر أولها رجب سنة ثمان وثمانين وأربع مائة . وفي هذا الشهر جاوز الامر حد الاختيار الى الاضطرار ، اذ أقفل الله على لساني حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسي أن أدرس يوماً واحداً تطييباً لقلوب المختلفة [الي] ، فكان لا ينطق لساني بكلمة [واحدة] ولا أستطيعها البتة ، حتى أورثت هذه العقلة في اللسان حزناً في القلب ، بطلت معه قوة الهضم ومراءة الطعام والشراب : فكان لا ينساغ لي ثريد ، ولا تنهضم (لي) لقمة ؛ وتعدى الى ضعف القوى ، حتى قطع الاطباء طمعهم من العلاج وقالوا : « هذا أمر نزل بالقلب ، ومنه سرى الى المزاج ، فلا سبيل اليه بالعلاج ، الا بأن يتروح السر عن الهم الملم » .

ثم لما أحسست بعجزي ، وسقط بالكلية اختياري ، التجأت الى الله تعالى التجاء المضطر الذي لا حيلة له ، فأجابني الذي « يجيب المضطر اذا دعاه » ، وسهل على قلبي الإعراض عن الجاه والمال (والاهل والولد والاصحاب) ، وأظهرت عزم الخروج الى مكة وأنا أدبّر في نفسي سفر الشام حذراً أن يطلع الخليفة وجملة الاصحاب على عزمي على المقام في الشام ؛ فتلطفت بلطائف الحيل في الخروج من بغداد على عزم أن لا أعاودها أبداً . واستهدفت لائمة أهل العراق كافة ، اذ لم يكن فيهم من يجوز أن يكون للاعراض عما كنت فيه سبب

دينيّ، اذ ظنوا أن ذلك هو المنصب الأعلى في الدين، وكان ذلك مبلغهم من العلم.

ثم ارتبك الناس في الاستنباطات، وظن من بعُد عن العراق، أن ذلك كان لاستشعار من جهة الولاة؛ (وأما من قرب من الولاة) فكان يشاهد إلحاحهم في التعلق بي والانكباب عليّ، واعراضي عنهم، وعن الالتفات الى قولهم، فيقولون: «هذا أمر سماوي، وليس له سبب الا عين أصابت أهل الاسلام وزمرة أهل العلم».

ففارقت بغداد، وفرقت ما كان معي من المال، ولم أدخر الا قدر الكفاف، وقوت الاطفال، ترخصاً بأن مال العراق مرصد للمصالح، لكونه وقفاً على المسلمين. فلم ار في العالم مالاً يأخذه العالم لعياله أصلح منه.

ثم دخلت الشام، وأقمت به قريباً من سنتين لا شغل لي الا العزلة والخلوة؛ والرياضة والمجاهدة، اشتغالاً بتزكية النفس، وتهذيب الاخلاق، وتصفية القلب لذكر الله (تعالى)، كما كنت حصلته من كتب الصوفية. فكنت اعتكف مدة في مسجد دمشق، أصعد منارة المسجد طول النهار، وأغلق بابها على نفسي.

ثم رحلت منها الى بيت المقدس، أدخل كل يوم الصخرة، وأغلق بابها على نفسي.

ثم تحركت فيّ داعية فريضة الحج، والاستمداد من بركات مكة والمدينة. وزيارة رسول الله ﷺ بعد الفراغ من زيارة الخليل صلوات الله وسلامه عليه؛ فسرت الى الحجاز.

ثم جذبتني الهمم، ودعوات الأطفال الى الوطن، فعاودته بعد أن كنت أبعد الخلق عن الرجوع اليه. فآثرت العزلة [به] أيضاً حرصاً على الخلوة، وتصفية القلب للذكر.

وكانت حوادث الزمان، ومهمات العيال، وضرورات المعاش، تغير فيّ وجه المراد، وتشوش صفوة الخلوة. وكان لا يصفو [لي] الحال الا في أوقات متفرقة. لكني مع ذلك لا أقطع طمعي منها، فتدفعني عنها العوائق، وأعود اليها.

ودمت على ذلك مقدار عشر سنين؛ وانكشفت لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن احصاؤها واستقصاؤها، والقدر الذي أذكره لينتفع به: أني علمت يقيناً أن **الصوفية** هم السالكون لطريق الله (تعالى) خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الاخلاق. بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه، لم يجدوا اليه سبيلاً. فان جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من (نور) مشكاة النبوة؛ وليس وراء نور النبوة على وجه الارض نور يستضاء به.

وبالجملة، فماذا يقول القائلون في طريقة، طهارتها — وهي أول شروطها — تطهير القلب بالكلية عما سوى الله (تعالى)، ومفتاحها الجاري منها مجرى التحريم من الصلاة، استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية في الله؟ وهذا آخرها بالاضافة الى مـا يكاد يدخل تحت الاختيار والكسب من أوائلها. وهي على التحقيق أول الطريقة، وما قبل ذلك كالدهليز للسالك اليه.

ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات (والمشاهدات)، حتى انهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة، وأرواح الأنبياء ويسمعون منهم أصواتاً ويقتبسون منهم فوائد. ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال، الى درجات يضيق عنها نطاق النطق، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها الا اشتمل لفظه على خطإ صريح لا يمكنه الاحتراز عنه.

وعلى الجملة. ينتهي الامر الى قرب يكاد يتخيل منه طائفة الحلول، وطائفة الاتحاد، وطائفة الوصول، وكل ذلك خطأ. وقد بينا وجه الخطأ فيه

في كتاب « المقصد الاسنى » ؛ بل الذي لابسته تلك الحالة لا ينبغي أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لست أذكره فظن خيراً ولا تسأل عن الخبر !

وبالجملة ، فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق ، فليس يدرك من حقيقة النبوة الا الاسم ، وكرامات الاولياء ، [هي] على التحقيق ، بدايات الانبياء ، وكان ذلك أول حال رسول الله ﷺ ، حين أقبل الى جبل « حراء » ، حيث كان يخلو فيه بربه ويتعبد ، حتى قالت العرب : « ان محمداً عشق ربه ! » .

وهذه حالة ، يتحققها بالذوق من يسلك سبيلها . فمن لم يرزق الذوق ، فيتيقنها بالتجربة والتسامع ، ان أكثر معهم الصحبة ، حتى يفهم ذلك بقرائن الاحوال يقيناً . ومن جالسهم ، استفاد منهم هذا الإيمان . فهم القوم لا يشقى جليسهم . ومن لم يرزق صحبتهم ، فليعلم امكان ذلك يقيناً بشواهد البرهان ، على ما ذكرناه في كتاب « عجائب القلب » من كتب « احياء علوم الدين » .

والتحقيق بالبرهان **علم** ، وملابسة عين تلك الحالة **ذوق**، والقبول من التسامع والتجربة بحسن الظن **ايمان** .

فهذه ثلاث درجات : « يرفع الله الذين آمنوا **منكم** والذين **أوتوا العلم** درجات » .

ووراء هؤلاء قوم جهال ، هم المنكرون لاصل ذلك ، المتعجبون من هذا الكلام ، يستمعون ويسخرون ، ويقولون : العجب ! انهم كيف يهذون ! وفيهم قال الله تعالى : « ومنهم من يستمع اليك ، حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً ، اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم » (فأصمهم وأعمى أبصارهم) .

ومما بان لي بالضرورة من ممارسة طريقتهم ، « **حقيقة النبوة وخاصيتها** » . ولا بد من التنبيه على اصلها لشدة مسيس الحاجة اليها .

حقيقة النبوة
واضطرار كافة الخلق اليها

اعلم : أن جوهر الإنسان في أصل الفطرة ، خلق خالياً ساذجاً لا خبر معه من عوالم الله (تعالى) ؛ والعوالم كثيرة لا يحصيها الا الله تعالى ، كما قال : « وما يعلم جنود ربك الا هو » وانما خبره من العوالم بواسطة الإدراك ، وكل ادراك من الإدراكات خلق ليطلع الإنسان به على عالم من الموجودات ، ونعني بالعوالم ، أجناس الموجودات .

فأول ما يخلق في الانسان حاسة **اللمس** ، فيدرك بها أجناساً من الموجودات : كالحرارة ، والبرودة ، والرطوبة واليبوسة ، واللين والخشونة ، وغيرها . واللمس قاصر عن الالوان والاصوات قطعاً ، بل هي كالمعدوم في حق اللمس .

ثم تخلق له [حاسة] **البصر** ، فيدرك بها الالوان والاشكال ، وهو أوسع عوالم المحسوسات .

ثم ينفخ فيه **السمع** ، فيسمع الاصوات والنغمات .

ثم يخلق له **الذوق** . وكذلك الى أن يجاوز عالم المحسوسات ، فيخلق فيه **التمييز** ، وهو قريب من سبع سنين ، وهو طور آخر من أطوار وجوده : فيدرك فيه اموراً زائدة على (عالم) المحسوسات ، لا يوجد منها شيء في عالم الحس .

ثم يترقى الى طور آخر ، فيخلق له **العقل** ، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات ، واموراً لا توجد في الاطوار التي قبله .

ووراء العقل طور آخر تنفتح فيه عين أخرى يبصر بها الغيب وما سيكون في

المستقبل ، واموراً أخر ، العقل معزول عنها كعزل قوة التمييز عن ادراك المعقولات وكعزل قوة الحس عن مدركات التمييز . وكما أن المميز لو عرضت عليه مدركات العقل لأباها واستبعدها ، فكذلك بعض العقلاء أبوا مدركات النبوة واستبعدوها ، وذلك عين الجهل : إذ لا مستند لهم الا انه طور لم يبلغه ولم يوجد في حقه ، فيظن انه غير موجود في نفسه . والأكمه ، لو لم يعلم بالتواتر والتسامع الالوان والاشكال وحكي له ذلك ابتداءً ، لم يفهمها ولم يقرّ بها . وقد قرب الله تعالى على خلقه بأن اعطاهم نموذجاً من خاصية النبوة ، وهو النوم : إذ النائم يدرك ما سيكون من الغيب ، اما صريحاً واما في كسوة مثال يكشف عنه التعبير . وهذا لو لم يجربه الإنسان من نفسه — وقيل له : «ان من الناس من يسقط مغشياً عليه كالميت ، ويزول (عنه) إحساسه وسمعه وبصره فيدرك الغيب . » — لأنكره ، واقام البرهان على استحالته ، وقال : « القوى الحساسة اسباب الإدراك ، فمن لا يدرك الأشياء مع وجودها وحضورها ، فبأن لا يدرك مع ركودها اولى واحق . » وهذا نوع قياس يكذبه الوجود والمشاهدة . فكما ان العقل طور من أطوار الآدمي ، يحصل فيه عين يبصر بها انواعاً من المعقولات ، والحواس معزولة عنها ، فالنبوة ايضاً عبارة عن طور يحصل فيه عين لها نور يظهر في نورها الغيب ، وأمور لا يدركها العقل .

والشك في النبوة ، اما ان يقع : في امكانها ، او في وجودها ووقوعها ، او في حصولها لشخص معين .

ودليل امكانها وجودها . ودليل وجودها وجود معارف في العالم لا يتصور ان تنال بالعقل ، كعلم الطب والنجوم ؛ فإن من بحث عنها علم بالضرورة انها لا تدرك الا بإلهام الهي وتوفيق من جهة الله (تعالى) ، ولا سبيل اليها بالتجربة . فمن الاحكام النجومية ما لا يقع الا في كل الف سنة مرة ، فكيف ينال ذلك بالتجربة ؟ وكذلك خواص الادوية . فتبين بهذا البرهان أن في الإمكان وجود طريق لادراك هذه الامور التي لا يدركها العقل — وهو المراد بالنبوة — لا أن النبوة عبارة عنها فقط ، بل ادراك هذا الجنس الخارج عن مدركات العقل احدى

خواص النبوة ، ولها خواص كثيرة سواها . وما ذكرنا ، فقطرة من بحرها ؛ انما ذكرناها لان معك أنموذجاً منها ، وهو مدركاتك في النوم ؛ ومعك علوم من جنسها في الطب والنجوم ، وهي معجزات الانبياء (عليهم الصلاة والسلام) ، ولا سبيل اليها للعقلاء ببضاعة العقل أصلاً .

واما ما عدا هذا من خواص النبوة ، فإنما يدرك بالذوق ، من سلوك طريق **التصوف** ؛ لان هذا انما فهمته بأنموذج رزقته وهو النوم ، ولولاه لما صدقت به . فإن كان للنبي خاصة ليس لك منها أنموذج ، ولا تفهمها اصلاً ، فكيف تصدق بها ؟ وانما التصديق بعد الفهم : وذلك الانموذج يحصل في اوائل طريق التصوف فيحصل به نوع من الذوق بالقدر الحاصل ونوع من التصديق بما لم يحصل بالقياس (اليه) . فهذه الخاصية الواحدة تكفيك للإيمان بأصل النبوة .

فإن وقع لك الشك في شخص معين ، أنه نبي أم لا ، فلا يحصل اليقين الا بمعرفة احواله ، اما بالمشاهدة ، او بالتواتر والتسامع ؛ فإنك اذا عرفت الطب والفقه ، يمكنك ان تعرف الفقهاء والاطباء بمشاهدة أحوالهم ، وسماع اقوالهم ، وان لم تشاهدهم ؛ ولا تعجز ايضاً عن معرفة كون الشافعي (رحمه الله) فقيهاً ، وكون جالينوس طبيباً ، معرفة بالحقيقة لا بالتقليد عن الغير ، [بل] بأن تتعلم شيئاً من الفقه والطب وتطالع كتبهما وتصانيفهما ، فيحصل لك علم ضروري بحالهما . فكذلك اذا فهمت معنى النبوة فأكثرت النظر في القرآن والاخبار ، يحصل لك العلم الضروري بكونه ﷺ على أعلى درجات النبوة ، واعضد ذلك بتجربة ما قاله في العبادات وتأثيرها في تصفية القلوب ، وكيف صدق ﷺ في قوله : «من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم» وكيف صدق في قوله : « من أعان ظالماً سلطه الله عليه » وكيف صدق في قوله : « من اصبح وهمومه هم واحد كفاه الله (تعالى) هموم الدنيا والآخرة » ، فاذا جربت ذلك في الف والفين وآلاف ، حصل لك علم ضروري لا تمارى فيه .

فمن هذا الطريق أطلب اليقين بالنبوة، لا من قلب العصا ثعباناً، وشق القمر، فان ذلك اذا نظرت اليه وحده، ولم تنضم اليه القرائن الكثيرة الخارجة عن الحصر، ربما ظننت انه سحر وتخييل، وانه من الله تعالى إضلال فانه « يضل من يشاء ويهدي من يشاء . »

وترد عليك اسئلة المعجزات، فاذا كان مستند ايمانك الى كلام منظوم في وجه دلالة المعجزة، فينجزم ايمانك بكلام مرتب في وجه الاشكال والشبهة عليها، فليكن مثل هذه الخوارق إحدى الدلائل والقرائن في جملة نظرك، حتى يحصل لك علم ضروري لا يمكنك ذكر مستنده على التعيين كالذي يخبره جماعة بخبر متواتر لا يمكنه ان يذكر أن اليقين مستفاد من قول واحد معين، بل من حيث لا يدري، ولا يخرج عن جملة ذلك ولا بتعيين الآحاد . **فهذا هو الايمان القوي العلمي** .

وأما **الذوق** فهو كالمشاهدة والاخذ باليد، ولا يوجد الا في طريق الصوفية.

فهذا القدر من حقيقة النبوة، كاف في الغرض الذي اقصده الآن، وسأذكر وجه الحاجة إليه .

سبب نشر العلم
بعد الاعراض عنه

ثم إني، لما واظبت على العزلة والخلوة قريباً من عشر سنين، بان لي في أثناء ذلك على الضرورة من أسباب لا احصيها، مرة بالذوق، ومرة بالعلم البرهاني، ومرة بالقبول الايماني : أن الانسان خلق من بدن وقلب — واعني بالقلب حقيقة روحه التي هي محل معرفة الله، دون اللحم والدم الذي يشارك فيه الميت والبهيمة — ، وأن البدن له صحة بها سعادته ومرض فيه هلاكه ؛ وان القلب كذلك له صحة وسلامة، ولا ينجو « إلا من أتى الله بقلب سليم » ؛ وله مرض فيه هلاكه الابدي الاخروي، كما قال تعالى : « في قلوبهم مرض » ؛ وان الجهل بالله سم مهلك ؛ وان معصية الله، بمتابعة الهوى، داؤه الممرض، وان معرفة الله تعالى ترياقه المحيي، وطاعته بمخالفة الهوى، دواؤه الشافي ؛ وانه لا سبيل إلى معالجته بازالة مرضه وكسب صحته، الا بأدوية ؛ كما لا سبيل إلى معالجة البدن الا بذلك . وكما أن أدوية البدن تؤثر في كسب الصحة بخاصية فيها، لا يدركها العقلاء ببضاعة العقل، بل يجب فيها تقليد الاطباء الذين اخذوها من الانبياء، الذين اطلعوا بخاصية النبوة على خواص الاشياء، فكذلك بان لي، على الضرورة، بان ادوية العبادات بحدودها ومقاديرها المحدودة المقدرة من جهة الانبياء، لا يدرك وجه تأثيرها ببضاعة عقل العقلاء، بل يجب فيها تقليد الانبياء الذين ادركوا تلك الخواص بنور النبوة، لا ببضاعة العقل . وكما ان الادوية تركب من (اخلاط مختلفة) النوع والمقدار وبعضها ضعف البعض في الوزن والمقدار، فلا يخلو اختلاف مقاديرها عن سر هو من قبيل الخواص، فكذلك العبادات التي هي

ادوية داء القلوب ، مركبة من افعال مختلفة النوع والمقدار ، حتى ان السجود ضعف الركوع ، وصلاة الصبح نصف صلاة العصر في المقدار ؛ ولا يخلو عن سر من الاسرار ، هو من قبيل الخواص التي لا يطلع عليها الا بنور النبوة. ولقد تحامق وتجاهل جداً من أراد أن يستنبط ، بطريق العقل ، لها حكمة ، أو ظن أنها ذكرت على الاتفاق ، لا عن سر إلهي فيها ، يقتضيها بطريق الخاصية. وكما أن في الادوية أصولاً هي أركانها ، وزوائد هي متماتها ، لكل واحد منها خصوص تأثير في أعمال أصولها ، كذلك النوافل والسنن متممات لتكميل آثار أركان العبادات .

وعلى الجملة : فالانبياء عليهم السلام أطباء أمراض القلوب ، وانما فائدة العقل وتصرفه أن عرّفنا ذلك وشهد للنبوة بالتصديق ولنفسه بالعجز عن درك ما يدرك بعين النبوة ، وأخذ بأيدينا وسلمنا (اليها) تسليم العميان الى القائدين ، وتسليم المرضى المتحيرين الى الاطباء المشفقين . فالى ههنا مجرى العقل ومخطاه وهو معزول عما بعد ذلك ، الا عن تفهم ما يلقيه الطبيب اليه .

فهذه أمور عرفناها بالضرورة الجارية مجرى المشاهدة ، في مدة الخلوة والعزلة.

ثم رأينا فتور الاعتقادات في أصل النبوة ، ثم في حقيقة النبوة ، ثم في العمل بما شرحته النبوة ، وتحققنا شيوع ذلك بين الخلق ؛ فنظرت الى أسباب فتور الخلق ، وضعف ايمانهم ، فاذا هي أربعة :

١ — سبب من الخائضين في **علم الفلسفة** ؛

٢ — وسبب من الخائضين في **طريق التصوف** ؛

٣ — وسبب من المنتسبين الى **دعوى التعليم** ؛

٤ — وسبب من معاملة **الموسومين بالعلم** فيما بين الناس .

فاني تتبعت مدةً آحاد الخلق ، أسأل من أن يقصر منهم في متابعة الشرع (وأسأله) عن شبهته وابحث عن عقيدته وسره وقلت له : « ما لك تقصر فيها فان كنت تؤمن بالآخرة ولست تستعد لها وتبيعها بالدنيا ، فهذه حماقة ! فانك

لا تبيع الاثنين بواحد ، فكيف تبيع ما لا نهاية له بايام معدودة ؟ وان كنت لا تؤمن ، فأنت كافر ! فدبر نفسك في طلب الايمان ، وانظر ما سبب كفرك الخفي الذي هو مذهبك باطناً ، وهو سبب جرأتك ظاهراً ، وان كنت لا تصرح به تجملاً بالايمان وتشرفاً بذكر الشرع ! »

فقائل يقول : « ان هذا امر لو وجبت المحافظة عليه ، لكان العلماء أجدر بذلك ؛ وفلان من المشاهير بين الفضلاء لا يصلي ، وفلان يشرب الخمر ، وفلان يأكل أموال الاوقاف واموال اليتامى ، وفلان يأكل ادرار السلطان ولا يحترز عن الحرام ، وفلان يأخذ الرشوة على القضاء والشهادة ! وهلم جراً الى امثاله .

وقائل ثان : يدعي (علم) التصوف ، ويزعم انه قد بلغ مبلغاً ترقّى عن الحاجة الى العبادة !

وقائل ثالث : يتعلل بشبهة اخرى من شبهات أهل الاباحة !

وهولاء هم الذين ضلوا عن التصوف .

وقائل رابع لقي أهل التعليم فيقول : « الحق مشكل ، والطريق اليه متعسر ، والاختلاف فيه كثير ، وليس بعض المذاهب أولى من بعض ، وأدلة العقول متعارضة ، فلا ثقة برأي أهل الرأي ، والداعي الى التعليم متحكم لا حجة له ، فكيف أدع اليقين بالشك ؟ » .

وقائل خامس يقول : لست أفعل هذا تقليداً ، ولكني قرأت علم الفلسفة وأدركت حقيقة النبوة ، وأن حاصلها يرجع الى الحكمة والمصلحة ، وأن المقصود من تعبداتها : ضبط عوام الخلق وتقييدهم عن التقاتل والتنازع والاسترسال في الشهوات ، فما أنا من العوام الجهال حتى أدخل في حجر التكليف ، وانما أنا من الحكماء أتبع الحكمة وأنا بصير بها ، مستغنٍ فيها عن التقليد ! » .

هذا منتهى ايمان من قرأ (مذهب) فلسفة الإلهيين منهم ؛ وتعلم ذلك من كتب ابن سينا وأبي نصر الفارابي . وهؤلاء هم المتجملون بالاسلام .

وربما ترى الواحد منهم يقرأ القرآن ، ويحضر الجماعات والصلوات ، ويعظم الشريعة بلسانه ، ولكنه مع ذلك لا يترك شرب الخمر ، وأنواعاً من الفسق والفجور ! واذا قيل له : «إن كانت النبوة غير صحيحة ، فلِمَ تصلي؟ » فربما يقول : « لرياضة الجسد ، ولعادة أهل البلد ، وحفظ المال والولد ! » وربما قال : « الشريعة صحيحة ، والنبوة حق ! » فيقال : « فلِمَ تشرب الخمر ؟ » فيقول : « إنما نهي عن الخمر لأنها تورث العداوة والبغضاء ، وانا بحكمتي محترز عن ذلك ، وإني أقصد به تشحيذ خاطري. » حتى ان ابن سينا ذكر في وصية له كتب فيها : أنه عاهد الله تعالى على كذا وكذا ، وأن يعظم الاوضاع الشرعية ، ولا يقصر في العبادات الدينية ، ولا يشرب تلهياً بل تداوياً وتشافياً ؛ فكان منتهى حالته في صفاء الايمان ، والتزام العبادات ، أن استثنى شرب الخمر لغرض التشافي .

فهذا ايمان من يدعي الايمان منهم . وقد انخدع بهم جماعة ، وزادهم انخداعاً ضعف اعتراض المعترضين عليهم ، إذ اعترضوا بمجاحدة علم الهندسة والمنطق ، وغير ذلك مما هو ضروري لهم ، على ما بينا علته من قبل .

فلما رأيت أصناف الخلق قد ضعف ايمانهم الى هذا الحد بهذه الاسباب ، ورأيت نفسي ملية بكشف هذه الشبهة ، حتى كان إفضاح هؤلاء أيسر عندي من شربة ماء ، لكثرة خوضي في علومهم [وطرقهم] —أعني [طرق] الصوفية والفلاسفة والتعليمية والمتوسمين من العلماء— ، انقدح في نفسي أن ذلك متعين في هذا الوقت ، محتوم. فماذا تغنيك الخلوة والعزلة ، وقد عم الداء ، ومرض الاطباء ، وأشرف الخلق على الهلاك ؟ ثم قلت في نفسي : « متى تشتغل أنت بكشف هذه الغمة ومصادمة هذه الظلمة ، والزمان زمان الفترة ، والدور دور الباطل ، ولو اشتغلت بدعوة الخلق ، عن طرقهم الى الحق ، لعاداك أهل الزمان باجمعهم ، وأنى تقاومهم فكيف تعايشهم ، ولا يتم ذلك إلا بزمان مساعد ، وسلطان متدين قاهر ؟ »

فترخصت بيني وبين الله تعالى بالاستمرار على العزلة تعللاً بالعجز عن إظهار

الحق بالحجة . فقدر الله تعالى أن حرك داعية سلطان الوقت من نفسه ، لا بتحريك من خارج . فأمر أمر إلزام بالنهوض الى نيسابور ، لتدارك هذه الفترة . وبلغ الالزام حداً كان ينتهي ، لو أصررت على الخلاف ، الى حد الوحشة . فخطر لي أن سبب الرخصة قد ضعف ، فلا ينبغي أن يكون باعثك على ملازمة العزلة الكسل والاستراحة ، وطلب عز النفس وصونها عن أذى الخلق ، ولم ترخص لنفسك عُسْرَ معاناة الخلق ، والله سبحانه وتعالى يقول : «بسم الله الرحمن الرحيم : الم . أحَسِبَ الناسُ أن يُتركوا أن يقولوا آمنّا وهم لا يُفتَنون ؟ ولقد فتنّا الذين من قبلهم » الآية . ويقول عز وجل لرسوله وهو أعز خلقه : « ولقد كُذِّبَتْ رُسلٌ من قبلكَ فصَبروا على ما كُذِّبوا وأُوذوا ، حتى أتاهم نصرُنا ؛ ولا مبدِّلَ لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبإِ المُرسَلينَ » . ويقول عز وجل « بسمِ اللهِ الرّحمنِ الرّحيم : يس . والقُرآنِ الحكيم » إلى قوله : « إنما تُنْذِرُ مَنِ اتَّبعَ الذِّكرَ وخَشِيَ الرحمنَ بالغيب » . فشاورت في ذلك جماعة من أرباب القلوب والمشاهدات ، فاتفقوا على الاشارة بترك العزلة ، والخروج من الزاوية ؛ وانضاف الى ذلك منامات من الصالحين كثيرة متواترة ، تشهد بأن هذه الحركة مبدأ خير ورشد قدّرها الله سبحانه على رأس هذه المائة ؛ فاستحكم الرجاء ، وغلب حسن الظنّ بسبب هذه الشهادات وقد وعد الله سبحانه باحياء دينه على رأس كل مـائة . ويسّر الله تعالى الحركة الى نيسابور ، للقيام بهذا المهم في ذي القعدة ، سنة تسع وتسعين وأربع مائة . وكان الخروج من بغداد في ذي القعدة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة . وبلغت مدة العزلة احدى عشرة سنة . وهذه حركة قدّرها الله تعالى ، (وهي) من عجائب تقديراته التي لم يكن لها انقداح في القلب في هذه العزلة ، كما لم يكن الخروج من بغداد ، والنزوع عن تلك الاحوال مما خطر امكانه أصلاً بالبال ؛ والله تعالى مقلب القلوب والاحوال و « قلب المؤمن بين اصبعين من اصابع الرحمن » . وأنا أعلم أني ، وان رجعت الى نشر العلم فما رجعت ! فان الرجوع عَودٌ الى ما كان ، وكنت في ذلك الزمان أنشر العلم

الذي به يكتسب الجاه ، وأدعو اليه بقولي وعملي ، وكان ذلك قصدي ونيتي . وأما الآن فأدعو الى العلم الذي به يُترك الجاه ، ويعرف به سقوط رتبة الجاه .

هذا هو الآن نيتي وقصدي وأمنيتي ؛ يعلم الله ذلك مني ؛ وأنا أبغي أن أصلح نفسي وغيري ، ولست أدري أأصِل الى مرادي أم أخترم دون غرضي ؟ ولكني أومن ايمان يقين ومشاهدة أنه لا حول ولا قوة الا بالله (العلي العظيم) ؛ وأني لم أتحرك ، لكنه حركني ؛ وأني لم أعمل ، لكنه استعملني ؛ فأسأله أن يصلحني اولاً ، ثم يُصلح بي ، ويهديني ، ثم يهدي بي ؛ وأن يريني الحق حقاً ، ويرزقني اتباعه ، ويريني الباطل باطلاً ، ويرزقني اجتنابه .

* * *

ونعود الآن الى ما ذكرناه من اسباب ضعف الايمان بذكر طريق ارشادهم وانقاذهم من مهالكهم :

اما الذين ادعوا الحيرة بما سمعوه من اهل التعليم ، فعلاجهم ما ذكرناه في كتاب « القسطاس المستقيم » ولا نطول بذكره (في) هذه الرسالة .

واما ما توهمه اهل الاباحة ، فقد حصرنا شبههم في سبعة انواع وكشفناها في كتاب « كيمياء السعادة » .

واما من فسد ايمانه بطريق الفلسفة ، حتى انكر اصل النبوة ، فقد ذكرنا حقيقة النبوة ووجودها بالضرورة ، بدليل وجود (علم) خواص الادوية والنجوم وغيرهما . وانما قدمنا هذه المقدمة لأجل ذلك . وانما أوردنا الدليل من خواص الطب والنجوم ، لأنه من نفس علمهم . ونحن نبين لكل عالم بفن من العلوم ، كالنجوم والطب والطبيعة والسحر والطلسمات ، مثلاً من نفس علمه ، برهان النبوة .

واما من اثبت النبوة بلسانه ، وسوّى اوضاع الشرع على الحكمة ، فهو على التحقيق كافر بالنبوة ، وانما هو مؤمن بحكم له طالع مخصوص ، يقتضي

طالعه أن يكون متبوعاً ؛ وليس هذا من النبوة في شيء . بل الإيمان بالنبوة : أن يقر بإثبات طور وراء العقل ، تنفتح فيه عين يدرك بها مدركات خاصة ، والعقل معزول عنها ، كعزل السمع عن ادراك الالوان ، والبصر عن ادراك الاصوات ، وجميع الحواس عن ادراك المعقولات . فإن لم يجوز هذا ، فقد أقمنا البرهان على امكانه ، بل على وجوده . وان جوز هذا ، فقد اثبت ، ان ههنا أموراً تسمى خواص ، لا يدور تصرف العقل حواليها أصلاً ، بل يكاد العقل يكذبها ويقضي باستحالتها . فإن وزن دانق من الافيون ، سم قاتل لانه يجمد الدم في العروق لفرط برودته . والذي يدعي علم الطبيعة ، يزعم أنَ ما يبرد من المركبات ، انما يبرد بعنصري الماء والتراب ؛ فهما العنصران الباردان . ومعلوم ان ارطالاً من الماء والتراب لا يبلغ تبريدها في الباطن الى هذا الحد . فلو أخبر طبيعي بهذا ولم يجربه ، لقال : « هذا محال ، والدليل على استحالته ان فيه نارية وهوائية ، والهوائية والنارية لا تزيدها برودة ؛ فنقدر الكل ماء وتراباً ، فلا يوجب هذا الإفراط في التبريد . فإن انضم اليه حارّان فبأن لا يوجب ذلك أولى . » ويقدر هذا برهاناً ! واكثر براهين الفلاسفة في الطبيعيات والإلهيات ، مبني علي هذا الجنس ! فانهم تصوروا الامور على قدر ما وجدوه وعقلوه ، وما لم يألفوه قدروا استحالته ، ولو لم تكن الرُؤْيا الصادقة مألوفة ، وادعى مدع ، انه عند ركود الحواس ، يعلم الغيب ، لانكره المتصفون بمثل هذه العقول . ولو قيل لواحد : هل يجوز أن يكون في الدنيا شيء ، هو بمقدار حبة ، يوضع في بلدة فيأكل تلك البلدة بجملتها ثم يأكل نفسه فلا يُبقي [شيئاً] من البلدة وما فيها ، ولا يبقى هو نفسه ؟ » لقال : « هذا المحال وهو من جملة الخرافات ! » وهذه حالة النار ، ينكرها من لم يرَ النار اذا سمعها . واكثر [انكار] عجائب الآخرة هو من هذا القبيل . فنقول للطبيعي : « قد اضطررت الى ان تقول : في الافيون خاصية في التبريد ، ليست على قياس المعقول بالطبيعة . فلمَ لا يجوز ان يكون في الاوضاع الشرعية من الخواص ، في مداواة القلوب وتصفيتها ، ما لا يدرك بالحكمة العقلية ،

بل لا يبصر ذلك الا بعين النبوة ؟ » بل قد اعترفوا بخواص هي اعجب من هذا فيما اوردوه في كتبهم ، وهي من الخواص العجيبة المجربة في معالجة الحامل التي عسر عليها الطلق ، بهذا الشكل :

د	ط	ب
ج	ه	ز
ح	ا	و

٤	٩	٢
٣	٥	٧
٨	١	٦

يكتب على خرقتين لم يصبهما ماء ، وتنظر اليهما الحامل بعينها ، وتضعهما تحت قدميها ، فيسرع الولد في الحال الى الخروج . وقد اقروا بإمكان ذلك واوردوه في « عجائب الخواص » ؛ وهو شكل فيه تسعة بيوت ، يرقم فيها رقوم مخصوصة ، يكون مجموع ما في جدول واحد خمسة عشر ، قرأته في طول الشكل او في عرضه او على التأريب .

فيا ليت شعري ! من يصدق بذلك ، ثم لا يتسع عقله للتصديق ، بأن تقدير صلاة الصبح بركعتين ، والظهر بأربع ، والمغرب بثلاث ، هو لخواص غير معلومة بنظر الحكمة ؟ وسببها اختلاف هذه الاوقات . وانما تدرك هذه الخواص بنور النبوة . والعجب انّا لو غيرنا العبارة الى عبارة المنجمين ، لعقلوا اختلاف هذه الاوقات ، فنقول : « أليس يختلف الحكم في الطالع ، بأن تكون الشمس في وسط السماء ، او في الطالع ، او في الغارب ، حتى يبنوا على هذا في تسييراتهم اختلاف العلاج ، وتفاوت الاعمار والآجال ، ولا فرق بين الزوال وبين كون الشمس في وسط السماء ، ولا بين المغرب وبين كون الشمس في الغارب ، فهل لتصديق ذلك سبب؟ » الا ان ذلك يسمعه بعبارة منجم ، لعله جرب كذبه مائة مرة . ولا يزال

يعاود تصديقه ، حتى لو قال المنجم [له] : «اذا كانت الشمس في وسط السماء ، ونظر اليها الكوكب الفلاني ، والطالع هو البرج الفلاني ، فلبست ثوباً جديداً في ذلك الوقت قتلت في ذلك الثوب ! » فإنه لا يلبس الثوب في ذلك الوقت ، وربما يقاسي فيه البرد الشديد ، وربما سمعه من منجم وقد عرف كذبه مرات !

فليت شعري ! من يتسع عقله لقبول هذه البدائع ويضطر الى الاعتراف بأنها خواص — معرفتها معجزة لبعض الانبياء — فكيف ينكر مثل ذلك ، فيما يسمعه من قول نبي صادق مؤيد بالمعجزات ، لم يعرف قط بالكذب ! (ولم لايتسع لامكانه !)

فان أنكر فلسني امكان هذه الخواص في اعداد الركعات ، ورمي الجمار ، وعدد اركان الحج ، وسائر تعبدات الشرع ، لم يجد بينها وبين خواص الادوية والنجوم فرقاً اصلاً . فإن قال : « قد جربت شيئاً من النجوم وشيئاً من الطب ، فوجدت بعضه صادقاً ، فانقدح في نفسي تصديقه وسقط من قلبي استبعاده ونفرته ؛ وهذا لم اجربه ، فبم اعلم وجوده وتحقيقه؟ » وان اقررت بإمكانه ، فأقول : « انك لا تقتصر على تصديق ما جربته بل سمعت اخبار المجربين وقلدتهم ، فاسمع اقوال الأنبياء فقد جربوا وشاهدوا الحق في جميع ما ورد به الشرع ، واسلك سبيلهم تدرك بالمشاهدة بعض ذلك . »

على أني اقول : « وان لم تجربه ، فيقضي عقلك بوجوب التصديق والاتباع قطعاً . فإنا لو فرضنا رجلاً بلغ وعقل ولم يجرب (المرض) ، فمرض ، وله والد مشفق حاذق بالطب ، يسمع دعواه في معرفة الطب منذ عقل ، فعجن له والده دواء ، فقال : «هذا يصلح لمرضك ويشفيك من سقمك . » فماذا يقتضيه عقله ، ان كان الدواء مراً كريه المذاق ، أن يتناول؟ أو يَـكذب ويقول : « انا [لا] أعقل مناسبة هذا الدواء لتحصيل الشفاء ، ولم أجربه ! » فلا شك انك تستحمقه ان فعل ذلك ! وكذلك يستحمقك اهل البصائر في توقفك ! فإن قلت : « فبمَ اعرف شفقة النبي ﷺ ومعرفته بهذا الطب ؟ » فأقول : « وبم عرفت [شفقة

ابيك] وليس ذلك أمراً محسوساً ؟ بل عرفتها بقرائن احواله وشواهد اعماله في مصادره وموارده علماً ضرورياً لا تمارى فيه . »

ومن نظر في اقوال الرسول ﷺ ، وما ورد من الاخبار في اهتمامه بإرشاد الخلق ، وتلطفه في جرّ الناس بأنواع الرفق واللطف ، الى تحسين الاخلاق واصلاح ذات البين ، وبالجملة الى ما يصلح به دينهم ودنياهم ، حصل له علم ضروري ، بأن شفقته ﷺ على أمته اعظم من شفقة الوالد على ولده .

وإذا نظر الى عجائب ما ظهر عليه من الافعال ، وإلى عجائب الغيب الذي أخبر عنه في القرآن على لسانه وفي الاخبار ، والى ما ذكره في آخر الزمان ، فظهر ذلك كما ذكره ، علم علماً ضرورياً أنه بلغ الطور الذي وراء العقل ، وانفتحت له العين التي ينكشف منها الغيب الذي لا يدركه الا الخواص ، والامور التي لا يدركها العقل .

فهذا هو منهاج تحصيل العلم الضروري بتصديق النبي ﷺ . فجرب وتأمل القرآن وطالع الاخبار ، تعرف ذلك بالعيان .

وهذا القدر يكفي في تنبيه المتفلسفة ، ذكرناه لشدة الحاجة اليه في هذا الزمان.

واما السبب الرابع — وهو ضعف الايمان بسبب سوء سيرة العلماء — فيداوى هذا المرض بثلاثة أمور :

احدها : أن تقول : « إن العالم الذي تزعم أنه يأكل الحرام ومعرفته بتحريم ذلك الحرام كمعرفتك بتحريم الخمر [ولحم الخنزير] والربا ، بل بتحريم الغيبة والكذب والنميمة ، وانت تعرف ذلك وتفعله ، لا لعدم ايمانك بأنه معصية ، بل لشهوتك الغالبة عليك ؛ فشهوته كشهوتك ، وقد غلبته كما غلبتك ، فعلمه بمسائل وراء هذا يتميز به عنك ، لا يناسب زيادة زجر عن هذا المحظور المعين .

« وكم من مؤمن بالطب لا يصبر عن الفاكهة وعن الماء البارد ، وان زجره

الطبيب عنه ! ولا يدل ذلك على أنه غير ضار ، او على ان الإيمان بالطب غير صحيح ، فهذا محمل هفوات العلماء . »

الثاني : ان يقال للعامي : « ينبغي ان تعتقد ان العالم اتخذ علمه ذخراً لنفسه في الآخرة ، ويظن أن علمه ينجيه ، ويكون شفيعاً له حتى يتساهل معه في أعماله ، لفضيلة علمه . وان جاز ان يكون زيادة حجة عليه ، فهو يجوز أن يكون زيادة درجة له ، وهو ممكن . فهو ، وان ترك العمل ، يدلي بالعلم . واما انت ايها العامي ! اذا نظرت اليه وتركت العمل وانت عن العلم عاطل ، فتهلك بسوء عملك ولا شفيع لك ! »

الثالث : وهو الحقيقة ، أن العالم الحقيقي ، لا يقارف معصية الا على سبيل الهفوة ، ولا يكون مصراً على المعاصي أصلاً . اذ العلم الحقيقي ما يعرّف أن المعصية سمٌّ مهلك ، وأن الآخرة خير من الدنيا . ومن عرَف ذلك ، لا يبيع الخير بما هو أدنى [منه] .

وهذا العلم لا يحصل بأنواع العلوم التي يشتغل بها أكثر الناس . فلذلك لا يزيدهم ذلك العلم الا جرأة على معصية الله تعالى . واما العلم الحقيقي ، فيزيد صاحبه خشية وخوفاً [ورجاءً] ، وذلك يحول بينه وبين المعاصي الا الهفوات التي لا ينفك عنها البشر في الفترات ، وذلك لا يدل على ضعف الايمان. فالمؤمن مفتنٌ توّابٌ ، وهو بعيدٌ عن الإصرار والإكباب .

* * *

هذا ما اردت ان اذكره في ذم الفلسفة والتعليم وآفاتهما وآفات من انكر عليهما ، لا بطريقه .

* * *

نسأل الله العظيم ان يجعلنا ممن آثره واجتباه ، وارشده الى الحق وهداه ، وألهمه ذكره حتى لا ينساه ، وعصمه عن شر نفسه حتى لم يؤثر عليه سواه ، واستخلصه لنفسه حتى لا يعبد الا اياه .